الفصل الرابع
الصنعة البديعية

لجأت الشاعرة إلى ألوان من البديع منها:

الاقتباس: عرف القزويني الاقتباس بقوله: «أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث»[1] وهو نوعان عندها:

أولاً ـ في النثر:

أكثرت الشاعرة في المولد النبوي من الاقتباس القرآني، من ذلك قولها في خطبة المولد النبوي:[2]

«الحمد لله القديم أحده. . المتعالي عظمه فلا تصوره الأوهام القوي حوله، الحق قوله، فلا تمثله الأفكار، الملك الحق المبين، الولي الحميد المتين . . .»[3].

وتقول أيضاً في حديثها عن وفاته: «ولم يزل ﷺ متصفاً بالكمال الأعلى والخلق الأعظم، مخصصاً بالجمال الأسنى والمجد الأكرم»[4]، ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[5].

وكذلك قولها «وحقق الله تعالى لحبيبه ﷺ بظهور الملة السمحاء أمله،

---

(١) القزويني، تهذيب الإيضاح، تح المرحوم عز الدين التنوخي: ١/ ٣٠٠.
(٢) الباعونية، عائشة، المورد الأهنى في المولد الأسنى، ق٦.
(٣) (الحشر٢٣، ـ٢٤).
(٤) الباعونية، عائشة، المورد الأهنى في المولد الأسنى، ق٥٢.
(٥) (الأحزاب: ٤٥ـ٤٦).

فأنزل الله برهاناً لذلك وتبياناً، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

كما كثر الاقتباس في المولد من الحديث الشريف من ذلك حديثها عن حادثة شق الصدر حيث تقول: فبينما هو ذات يوم مع أخيه في المرعى، وعين الله ترعى، إذ بثلاثة نفر، يعلوهم جمال وخفر ومعهم طست من ذهب يقصر عنه النعت ملئ من ثلج الاختصاص الأعظم، بما شاء الرحمن وأكرم فتولى الأول شق صدر الكريم وتولى الثاني غسل قلبه بذلك الماء. .»[2].

وهو حديث طويل عن السيدة عائشة رضي الله عنها، من حديث شداد بن أوس ولطول الحديث سأذكر أوله «بينا أنا الساعة قائم على إخوتي، إذ أتاني رهط ثلاثة بيد أحدهم إبريق فضة وفي يد الثاني طست من زمرد ثم شق من صدري. . فأخرج أحشاء بطني فغسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها»[3].

كما أنها اقتبست من الحديث الشريف أثناء حديثها عن معجزات الرسول ﷺ. . «إن في معجزة القرآن ستين ألف معجزة وأكثر وعندي أن الحصر في ذلك غير ممكن. . ومن معجزاته ﷺ التي بلغت حد التواتر: انشقاق القمر، ورد الشمس بعد أن غربت ولم يبق لها في السماء أثر، وتسبيح الحصى والطعام وغيرهما بين يديه، وسجود الحجر الشجرو له، وتسليمهما عليه»[4].

وهناك حديث عن تسليم الحجر رواه الترمذي في سننه عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن بمكة حجراً كان يسلم علي ليالي بعثت إني لأعرفه الآن (رواه مسلم في باب فضائل النبي ﷺ)[5].

كذلك في حديثها عن صفاته الخلقية والخلقية، اقتبست ألفاظاً وردت

---

(١) (المائدة: ٣).

(٢) الباعونية، عائشة، المورد الأهنى في المولد الأسنى، ق٥٢.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق، السيرة النبوية، ص ٣٧٠ـ٣٧٣ـ٣٨٥.

(٤) صحيح مسلم، حديث انشقاق القمر أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٢١٤٠) باب انشقاق القمر.

(٥) الترمذي، سنن الترمذي، في كتاب المناقب، باب إثبات نبوة النبي ﷺ حديث (٣٦٢٨).

بالحديث الشريف، من ذلك أنه ﷺ كان «أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحاجبين، أقنى العرنين، سهل الخدين، أدعج العينين. . .»[1].

روى ابن عساكر عن محمد بن علي عن علي بن أبي طالب قال: «كان رسول الله ﷺ ضخم الرأس، عظيم العينين، مشرب العينين من حمرة، هدب الأشفار، كث اللحية، شثن الكفين والقدمين، أزهر اللون، إذا مشى تكفأ كأنما يمشي في صعد، وإذا التفت التفت جميعاً»[2].

ثانياً ـ الاقتباس في الشعر:

كثر اقتباس الشاعرة في أشعارها، من ذلك إشارتها إلى قوله تعالى[3]: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾. . بقولها[4]:

كذلك قولها[5]:

بتفصيله التوراة جاءت وكم أتت ... بإنجيل عيسى في البيان شروح

تشير إلى قوله تعالى في كتابه العزيز ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[6].

وكذلك قولها[7]:

للمصطفى المجتبى ياسين من نزلت ... في مجده الفرد إنجيل وتوراة

تشير إلى قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ

---

(١) الباعونية، عائشة، المورد الأهنى في المولد الأسنى، ق٥٦.
(٢) تاريخ ابن عساكر (السيرة النبوية، باب صفات خلقه)، ٢١٣.
(٣) (الرعد: ١٣).
(٤) الباعونية، عائشة، المورد الأهنى في المولد الأسنى، ق٥٩.
(٥) المصدر نفسه، ق٥٠.
(٦) (الصف: ٦).
(٧) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٧٦.

وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[1].

وفي ذكرها لحادثة الإسراء اقتبست الشاعرة ألفاظاً وتراكيب من القرآن، في قولها[2]:

والله قد أسرى به في ليله ... قد فاق فيها نور بدر تمام
وغدت ملائكة السماء تحوطه ... يمشون معه مشية الخدام
ورقا إلى السبع السموات العلا ... وعلا دنواً فوق كل مقام
ودنا إلى أن صار مثل القاب من ... قوسين من ذي العز والإكرام
فحباه بالإجلال والإفضال والتقريب ... في التكليم والإنغام

ومن هذه الألفاظ المقتبسة: «أسرى ليلاً وقاب قوسين» نجد ظاهرة حسنة، حيث إنها اقتبست ألفاظاً لتوظفها توظيفاً جديداً، فهي ألفاظ لغة القرآن عمدت إلى إحيائها وتنميتها وإدخالها في إطار رمزي بعيد الدلالة، يشير إلى عظمة هذا النبي ﷺ، وقد أشار اليوت إلى ضرورة نقل اللفظ من إطار الماضي، وتوظيفه بمعطيات الحاضر مما ينميه بقوله: «إن ولاء الشاعر يجب أن يكون للغة التي يرثها من الماضي، والتي يجب أن يحافظ عليها وينميها»[3].

ومن هذه الألفاظ والتراكيب القرآنية المقتبسة قولها[4]:

والجن ترمى إن أرادت تسترق ... سمعاً بشهب مثل وقع سهام

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾[5].

واقتبست أيضاً:[6]

ودنا ثم تدلى ... وسقانا فارتوينا

---

(١) (الأعراف: ١٥٧).
(٢) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٢٥.
(٣) نقلاً عن عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية، ص ٢٤٣.
(٤) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٢٥.
(٥) (الحجر: ٨١).
(٦) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق ٢٣٤.

وكذلك في قولها[1]:

وحسبك من برهان عليه أنه دنى وتدلى والثبات رجيح

مشيرة إلى قوله تعالى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[2].

وأشارت إلى محامد الرسول وخصاله في سورة القلم[3]:

وراع لفظاً ووزناً في محامد من جاءت محامده في نون والقلم

واقتبست ألفاظاً وتراكيب من أحاديث الرسول الكريم ﷺ فقد ورد في (المورد الأهنا) عن العرباض بن سارية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إني عبد الله، وخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم عن ذلك: أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي». فالرسول هو أول الخلق وآدم بين الماء والطين[4]:

قد كان طٰه قبل إيجاد الورى نوراً براه باري الأشياء

من قبل إيجاد لآدم وهو منـ ـجدل غدا في طينه والماء

وكان اقتباسها من قوله عليه السلام: (بشارة عيسى) قولها[5]:

وكذا ابن مريم في الشفاعة قد غدا دالاً عليه بأحسن الأسماء

واقتبست قول الرسول الكريم ﷺ في الشفاعة يوم القيامة، وحملته رمزاً دلالياً جديداً، ليصبح ﷺ رمز الرحمة المهداة، فهو قائد الأمة الإسلامية في ذلك اليوم، لأن الرسول الكريم كما في صحيح مسلم قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول شافع وأول مشفع»[6].

فتقول في ذلك[7]:

---

(١) الباعونية، عائشة، بديعية الفتح المبين، ق٣٥.

(٢) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٦٢.

(٣) المصدر نفسه، ق٦٣.

(٤) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٦٢.

(٥) المصدر نفسه، ق٦٣.

(٦) مسلم، صحيح مسلم: ٤/ ١٢٨٢ـ١٢٨٦.

(٧) الباعونية، عائشة، در الغائص، ق١.

فهـو الشفيـع إذا البـرايـا غمهـم كرب القيامة واشتكوا من عسرها

وقولها أيضاً[1]:

ويشفـع فـي نـاس، بـرفـع مقـامهـم إلـى غـايـة العليـاء فعـلاً محـررا

واقتبست من الحديث الشريف لفظة (الحوض) في قولها[2]:

ولـه اللـوا والحـوض أعظـم آيـة ولـه الـوسيلـة والقيـام بشكـرهـا

كما روى مسلم بقوله: «حوضي مسيرة شهر وزواياه سواه، وماؤه أبيض من الورق (الفضة) وريحه أطيب من المسك وكيزانه (آنيته) كنجوم السماء، فمن شرب منه لا يظمأ بعده أبداً»[3].

التصريع:

ومن أوجه البديع التي وجدت عند الباعونية التصريع، وهو أن تكون «عروض البيت تابعة لضربه، تنقص بنقصه، وتزيد بزيادته... وهو دليل قوة الطبع وكثرة المادة، وإذا كثر دل على التكلف»[4].

وقد صرعت الباعونية في قصيدتها البديعية[5]:

عَن مُبتدأ خبر الجَرعاءِ من إضمِ حدثْ ولا تنسَ ذِكر البان والعلمِ

شابهتُ أطرافَ منظومي فإن أُلمْ ألمْ على العيشِ يوماً دون قربهمِ

يا سعدُ يمّمْ ربوعَ الحيّ عن أُمم وأقرِ السّلامَ لزوماً سيّدَ الأممِ

صرعت في هذه الأبيات وقد استطاعت الباعونية أن تحدث تناغماً داخلياً بين الألفاظ بل بين الحروف، وكان وسيلتها لذلك استخدام المحسنات اللفظية، كالجناس والطباق اللذين «يعدان من مظاهر موسيقى القصيدة

---

(١) المصدر نفسه، ق٤.

(٢) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٦١.

(٣) مسلم، صحيح مسلم، ٤/ ٧٩٢ـ١٨٠٢.

(٤) بكار، د. يوسف، بناء القصيدة، ص ١٩٧.

(٥) ابن المعتز، كتاب البديع، ص ٢٥ـ٢٦.

الداخلية»[1] وهما «نوعان قديمان في الشعر والقرآن الكريم والأحاديث النبوية»[2].

وقد تنوَّعت في العصر المملوكي أنواع الجناس، كالمذيل والتام والمخالف والمصحف واللاحق واللفظي والمعنوي، والحقيقة أن العصر المملوكي هو عصر البديعيات، والتفنن بفنون البديع، فكان لابد لشاعرتنا من التأثر بذلك فكل عصر يترك أثره على الشاعر حتماً، من هنا وظفت ـ وباقتدار ينم على ثقافة ـ عائشة نوعين من الجناس في بيت واحد في قولها[3]:

أقـــولُ والـــدّمـــعُ جـــارٍ جـــــارحٌ مقلـــــي

ففي قولها «جار، جارح» جناس مذيل وبين «جار، جار» جناس تام

وقد استخدمت الجناس المخالف من ذلك قولها[4]:

أحبـةٌ لـم يـزالـوا منتهـى أمَلـي وإنْ هَمـوا بالتنـائي أوجَبـوا ألمـي

فنلاحظ هنا هذا التناغم بين «أملي، ألمي»، وقد تفننت شاعرتنا بأنواع الجناس، وباختيار مخارج حروفها وهذا ما نلاحظه في جناسها اللاحق وهو ما أبدل أحد ركنيه حرفاً من غير مخرجه من ذلك قولها[5]:

عَلوا كمالاً، جلوا حُسناً سبوا أمماً زَادوا دلالاً، فَني صَبري فَيا سُقمي

نلاحظ مخارج الحروف فالعين من مخرج والجيم من مخرج، والحقيقة أن عائشة الباعونية قد أظهرت مقدرة في توظيف الفنون البديعية من ذلك استخدامها الجناس المصحف في قولها[6]:

فثـمّ أقمـارُ تـمّ طـالعيـنَ علـى طـويلـعِ حيّهـم وانـزلْ بِحيهـم

فبين (حيهم، حيهم) جناس مصحف.

---

(١) الباعونية، عائشة، ديوان النبويات، ق٢٦.
(٢) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٥٠.
(٣) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٥٢.
(٤) الباعونية، عائشة، بديعية الفتح المبين في مدح الأمين، ق٤.
(٥) المصدر نفسه، ق٦.
(٦) المصدر نفسه، ق٨.

كما لجأت الباعونية أحياناً إلى الطباق وهو «الجمع بين الشيء وضده»[١].

فإذا كان الجناس «يظهر أثره في وحدة الجرس، فالطباق يظهر أثره في تنويع هذه الوحدة»[٢] وهذا ما يظهر في قول عائشة الباعونية[٣]:

وفي عُلوِ طباق المجدِ أشهدني وجدي بِهم خَفضَ ذُلي عند عزّهمِ

وقولها[٤]:

الشّوقُ والصّبرُ ذَا غالبٌ وذا مغلوبٌ والحبّ والقلبُ ذا سالبٌ وذا مسلوبُ
والعَقلُ والوجدُ ذا ناهبٌ وذا منهوبٌ والصّبّ والحبُّ ذا خاطبٌ وذا مخطوبُ

هنا نجد المطابقة بين اسم الفاعل (ناهب) واسم المفعول (منهوب) إضافة إلى هذا الجرس الموسيقي لحرف الباء. من ذلك قولها[٥]:

والبؤسُ نُعمى والتقاطعُ وصلة والموتُ محيا والبلا تكريما

فهي طابقت هنا بين (البؤس، نعمى) وبين (الموت، محيا) و(البلا تكريما) مما جعل الجمل الاسمية ذات إيقاع موسيقي خاص.

وقد استخدمت نوعاً آخر من البديع هو التفويف وقد عرف بأنه مأخوذ «من الثوب المفوف الذي فيه خطوط بيض، وفي الصناعة هو إتيان المتكلم بمعان شتى من المدح أو الغزل أو غيرهم، بسجعة منفصلة عن أختها من تساوي الجمل في الوزنية، ويكون بالجمل الطويلة والمتوسطة والقصيرة»[٦] من ذلك قولها[٧]:

فوّفْ اجدْ أنصحْ انظمْ راع
جلّ أفدْ مرّر، أجلْ أبسطْ، اشرحْ، حل وش حم

---

(١) العسكري، عبد الله بن سهل، كتاب الصناعتين، ص ٣٣٩.
(٢) نقلاً عن د. يوسف بكار، بناء القصيدة، ص ١٩٧.
(٣) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق١٦٧.
(٤) المصدر نفسه، ق٤٧.
(٥) المصدر نفسه، ق٢٦.
(٦) ابن رشيق، العمدة، ١/ ١٣٤.
(٧) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٣٠.

نجد هنا المفوفة القصيرة في (دم) والمتوسطة في (أجد)، والطويلة (انصح).

كما استخدمت عائشة الباعونية التطريز، وهو «أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن فيكون كالطراز في الثوب»[١].

كما في قولها[٢]:

مَدحِي وَتطريزه والد مع مُنسجمُ في ضمنِ منسجمٍ في إثرِ منسجمِ

وذلك في قولها: «منسجم في إثر منسجم» لتعطي الأبيات وحدة جرس نغمي منسجم.

ومن تطريزاتها أيضاً قولها[٣]:

صَلّ على الرّحمة العُظمى التي ظهرتْ وعمتْ الخلقَ في الدارين بالمننِ
صلّ على سِركَ الأسنى الذي بهرتْ آياتهُ وغدتْ كالعَارضِ الهتنِ

فقد أعطتنا في قولها: «التي ظهرت» و«الذي أبهرت» أنغاماً متساوية مع الإيقاع.

وقد ابتدعت الباعونية فناً جديداً من فنون البديع وهو (تنسيق الصفات)، وهو الذي يعرف بأنه: «ذكر الشيء وتعقيبه بتعدد صفاته»[٤].

ومن ذلك قولها[٥]:

أعظمْ بهِ من نبيٍّ سّيدٍ سندٍ هادٍ سراجٍ منيرٍ صفوة القدم

من فنونها البديعية والتي تمنح الأبيات نغمة إيقاعية (التشطير) وهو «ما يتوازن فيه المصرعان والجزءان وتتعادل أقسامهما مع قيام كل واحد منهما بنفسه واستغنائه عن صاحبه»[٦].

---

(١) ابن رشيق، حسن، العمدة، ١/ ١٣٤.
(٢) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٣٠.
(٣) نقلاً عن د. جابر عصفور، مفهوم الشعر، ص ٢٣٩.
(٤) العسكري، عبد الله بن سهل، كتاب الصناعتين، ص ٤٦٣.
(٥) الباعونية، عائشة، ديوان النبويات، شرح البديعية، ق٧.
(٦) نقلاً عن د. فايز الداية، البلاغة العربية، ص ١٤٨.

ويكون بأن «يقسم الشاعر بيته شطرين، يصرّع كل شطر من شطريه ولكنه يأتي بكل شطر من بيته مخالفاً لقافية الآخر»[١].

ومن تشطيراتها قولها[٢]:

بالحقِّ مُشتعل، في الخلق مكتملٌ بـــالبـــرِ معتصـــمٌ بـــالبـــرِ مُلتـــزمُ

فقد شطرت قولها: «بالحق مشتعل، في الخلق مكتمل» مع «بالبر معتصم، بالبر ملتزم» كما استخدمت (التقسيم) وهو كما يعرفه السكاكي أن تذكر شيئاً ذا جزأين أو أكثر، ثم تضيف إلى كل واحد من أجزائه مما هو له عندك[٣]:

من ذلك قول عائشة[٤]:

والنّيـــرانُ أطـــاعَـــاه فَتلـــك بَـــدَتْ بعدَ الأفولِ، وهذا شَقَّ في الظّلم

وقد وجدت الشاعرة في (السجع) وهو: «الكلام المقفى غير الموزون»[٥].

في بعض الأحيان ما يخدم إيقاعاتها الرامزة، فاستخدمته في أشعارها، من ذلك قولها[٦]:

للبـــذلِ مغتنـــمٌ، بـــالبشـــرِ متّســـمٌ يَسمـــو بمبتســـمٍ، كـــالـــدرّ منتظـــمِ

وأخيراً نلاحظ براعة عائشة الباعونية في توظيف فنون البديع، لترمز بها في أغزالها وخمرياتها ونبوياتها، معبرة بها عن طمأنينة نفسية وحبٍّ إلهيٍّ ملأ قلبها نوراً قبل أن يملأ عينيها جمالاً.

* * *

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٧.
(٢) الباعونية، عائشة، البديعية، ق١٠.
(٣) المصدر نفسه، ق١١.
(٤) السكاكي، أبو يعقوب، مفتاح العلوم، ص ٦٦.
(٥) المعجم الوسيط، مادة سجع.
(٦) الباعونية، عائشة، ديوان النبويات، ق١٦٨.